الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية ادبية

بقلم
الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البرامية

تصدير

تقدم لابناء الضاد الكرام هذه الرواية الطريفة اللطيفة التي دبّجها يراعُ كاتبٍ عبقريّ خدم الدين والعلم والوطن بلسانهِ وقلمهِ طيلة نصف قرنٍ ، بما نظم ونثر ونقّح وهذّب وعرّب وصنّف من مباحث وروايات وكتب ومقالات يترقرق فيها ماء الطبع ويرتفع لها حجاب القلب والسمع ، هو الاب مبارك ثابت الذي يرشّ قلمه المخصاب ندى فرائد الفوائد الدينية والوطنية والعلمية والتاريخية ، جائلاً في جميع الميادين الادبية وناثلاً أولى جوائز المباريات القلمية ، يسقي ذلك القلم من معشقة الدير ويجريهِ على الطروس ، فيخطُّ بياناً وسحراً لاعباً بالعقول وبالنفوس : « لعب المدامة بالنزيف الشارب ».

وما فتئَ هذا القلم الجمّ المحاسن البعيد عن المطاعن الذي سوّد في الحرب الكبرى الماضية اكداساً من الورق ، ناضراً فتياً بالرغم من شيخوخته يمشي على سجيّته لا يزلُّ ولا يكبو ولا يفلّ ولا ينبو ولا يرتحي ولا يسهو ولا ينالهُ كلل او فتور ، ولا تحول دون اضطراده عقباتٌ او حؤول ، يتدفّق من انبوبهِ معينُ الآداب الصافية تدفّقَ سلسبيل رقراق على جنّاتٍ خضراء ، فيضحكُ الزّهرُ مقترًا عن الدرر .

وطالما عشق هذا القلم لبنان فتغنّى بمحاسنه ومفاتنه وعظائمه ومفاخره في

صحافة الوطن والمهجر ، مصوّرًا ابدع تصوير مطلع فجره وسحر شروق شمسه وغروبها ومسابح قمره ونجومه ، وطيب مائه وهوائه وصفاء سمائه وجمال ارزه وكمال مناظره ، يبسطها امام عينيك بحقيقتها وروعتها ، عاقدًا في كل ذلك وفي فصول لبنان الاربعة ، الفصول الطرائف الظرائف ، ومنشئًا من الروايات الادبية الاخلاقية الوطنية ما يصحُّ ان يقال فيها انها بدائع وروائع بما خلع عليها من رشاقة العبارة وجودة المعنى وجمال الوصف ودقّة التصوير وكساها من ثوبٍ موشّى بالنضار يسترعي الابصار ويستهوي الافكار .

وما رواية « الاميرة هيفاء وفخر الدين الكبير » الا حلقة من حلقات رواياته الذهبية ، وحسناء من حسان لبنان ذوات الحسن الباهر والقدّ الأهيف الزاهر التي انبتتها تربة لبنان ولم تفتح عينيها على غير مشاهده الفاتنة وأمجاده الخالدة ، ترسم لك ايها القارئ ريشة الاب ثابت الناعمة تلك الفتاة بالوانها وخطوطها كما أبدعها الله غادةً هيفاء ساحرةً فتّانةً حَيِيَّةً نفورًا من الريبة ، فكأنَّ عينيك تنتقل في مباهجها على بُسُطٍ من سندسٍ خضر ، لا تسترقفك في تضاعيفها كلمةٌ نابية ولا عبارةٌ ركيكة ولا معنًى سخيف ، بل تستدرجك بغرباتها الى الاستمتاع بلذّة بريئة طاهرة فتنثني بنشوتها كما انتشيتُ وتثني على ناسج بردتها كما اثنيتُ وتتمنّى كما تمنّيتُ ان يظلَّ ذيّاك القلم الذي خطّها ، مرهف الحدّ لا يدانيه صدأٌ او مشيب ، يرفد العالم العربي اسلاك الدرر ومجالي الغرر يستنزلها ويستلهمها من سماء دارة قمر دير القمر .

جبيل – دير سيدة المونات
في ٣٠ تموز سنة ١٩٥١

الاب انطونيوس سُبلي
اللبناني

توطئة

غنيٌ عن البيان ان مطالعة التاريخ مدرسة مفتوحة الابواب مجّانة سهلة الورود . مدار تعليمها على تهذيب الاخلاق وتطهير العواطف وتقويم السيرة وتعشّق الفضيلة وتنكّب الرذيلة مع ما يلحق ذلك من تقوية نظر العقل ، وإذكاء جذوة الفهم ، وتوسيع نطاق المعرفة وإرهاف باتر العزم في معارك المنافسة في الخير ، قطعاً لعوائق التشبه بالكرام ، ودكّاً لحواجز البلوغ الى مراتب العظام . الى سائر ما يجني المطالعُ من قطوف الفوائد اليانعة في بساتينها الناضرة ، وما يغترفه الواردُ من سلسبيل ينابيعها الغزيرة الصافية .

غير ان كثيراً من شبّان عصرنا مُعرضون عن هذه المطالعة الحافلة بالفوائد انقياداً لما عندهم من ميل الى مطالعة ما تغريهم به اللذّة دون اكتراث لخسارة النافع وربح الضارّ .

فجاراةً لاهوائهم ورغبةً في نفعهم نُؤلّفُ اليهم هذه الرواية جامعين فيها بين النافع واللذيذ ، حتى اذا اخذوا في قراءتها تجتذبهم اللذّة البريئة الى الفائدة ، وتقودهم بيدها الناعمة الى موطن الإلمام ببعض الحوادث التاريخية الخطيرة التي كان مسرحها وطننا اللبناني الكريم عهد اميره الخطير فخر الدين المعني الثاني الملقب بالكبير[1] . الرواية تاريخية باحداثها واشخاصها ومواقعها الا ما أُدمج في بعض فصولها من مبتدعات الخيال ، من مقتضيات التزيين والتشويق والتكميل .

تلك خدمة للوطن وتاريخه المجيد وابنائه الاعزّاء ، لا نسألهم لها الا الحظوة والقبول .

---

١) وُلد فخر الدين المعني الثاني الكبير عام ١٥٧٢ ، وحكم لبنان عام ١٥٩٠ ، وقُتل عام ١٦٣٥

١
نزعة الى الفتح

صبيحة يوم من شهر ايار من عام ١٦٠٠ كان يوسف باشا سيفا جالساً على مقعدٍ في احدى علالي داره في عكّار[1] ينظر من طاقةٍ الى الطبيعة عروس الربيع الحسناء. وقد برزت في حلّةٍ من السندس تهزهزها ايدي الصبا تحت برنس شفافٍ من ذهب الاشعة خلعته عليها الغزالة اول إشراقها من فوق الجبال. وفي الجهة المقابلة من القاعة باب مفتوح، منه الى النافذة مجرى هواء يلاطف ما هنالك من اثاثٍ وشعاعٌ على الطنافس المفروشة نافذ من الباب بحجم اتساعه وطرفهُ على قدمي الباشا يمثل بساطاً من ذهبٍ وعاج مُدَّ في وسط القاعة. ومنه على علو مترٍ شبه ستارٍ منسوجٍ نسج من هباآتٍ مرئية متلوّنة تروح وتجيء في سرابٍ اصفر وهي متشابكة متداخلة في كل صوب.

وكأنَّ هذا المشهد الجميل استرق عين يوسف فجعل يتأمله وقد القى في نفسه خواطر فأسند رأسه بانامله وغاص في لجة التبختر. وانه لكذلك اذ دخل عليه غلامٌ يحمل طبقاً من ذهب بنقشٍ عجميٍّ عليه فنجان كبير من خزفٍ صينيٍّ ابيضٍ في ظرفٍ من فضةٍ مثقّبٍ من الصياغة المعروفة «بالكرشفت» وفي يده ابريقٌ من فضة ايضاً بديع الصنع فيه قهوة بنٍّ تنبعث منها رائحة تنعش الفؤاد. حيّا سيده وصبَّ القهوة وناوله واخذ غليوناً من خزفٍ احمر حشاه تبغاً وجعل عليه جذوة فأخذه الباشا من يده وامتصَّ امتصاصةً من القهوة وتلاها بنفثةٍ من طرف الماسورة وهي انبوبٌ طويل من خشب الابنوس، فخرج من فيه ومنخريه دخانٌ ابيض كثيف طيب العرف صعد متلوياً في الهواء. وقال للغلام: عليَّ «بالكاخية» المدبّر. فأدخل عليه رجلاً ربع القامة ابيض الوجه والشعر، لامع العينين بادي الهيبة والوقار فأجلسه يوسف الى يمينه وامر له بالقهوة والغليون وقال: انظر يا ناصر الى هذا الشعاع كيف تلعب فيه الهباءات المتراكمة هكذا تلعب بفؤادي الافكار. فقال ناصر:

---

(١) كانت عكار القديمة شرقي قرية بيرو هدمها الامير فخر الدين المنيّ عام ١٦١٨ للبلاد، وقد اخلاها يوسف باشا سيفا منهزماً من وجهه الى قلعة الحصن كما سيجيء.

— ماذا يقلق سيدي ولم تطمح نفسك الى مجد إلا وطأ لك ظهره وعنت لك رقابه . قال :

— هيهات ان اقفأ ظلّ الراحة ولي همّة شمّاء لا ترتضي النجم مقعداً . لقد ضربت اطنابي على امر ولست بناكص عنه وان كان دونه خرط القتاد. قال :

— الى اية منزلة تتزع همتك وقد بلغت الى رفعة لا تسامى وعزة لا تُغالب . وبسطت رواق حكمك على الشطر الاكبر من لبنان. ورفعت عَلَمك المظفّر خافقاً على السهول والجبال . وحملت على الحكام الاعزّاء. فجدعت انف عزّهم وقوّضت سرادق مجدهم . واستأصلت شأفة اكثرهم وقمّصت من بقي منهم الذلّ والهوان . وصرت المسيطر على البلاد من مفقس الموج الى مرمى الثلج . من نهر الكلب الى النهر الكبير الى تخوم انطاكية فماذا تروم بعد هذا الفتح العظيم الذي ألبسك مهابةً تخشع امامها العيون وجلالةً تعنو لها الجباه ؟ قال :

— من رضي من دهره بنصف النصيب فان هو الا نصف انسان . ان نفسي تطمح الى غايةٍ تتراجع عنها سوابق الهمم .

وجعل يده على مقبض سيفه وقال : بهذا السيف استوليتُ على لبنان الشمالي وبه اريد الاستيلاء على لبنان الجنوبي .

يوسف باشا سيفا علم من اعلام اسرة سيفا الكردية . جرت بينها وبين آل شعيب وقائع دامية تنازعاً على حكم طرابلس والاقاليم الشمالية . وذلك ان المماليك وكلوا الى آل سيفا حراسة جون عكار وسهل بلاد طرابلس وعوّلوا عليهم في تأمين الطريق من تعديات النصيرية والعكاريين الجبليين فزاحمهم على السلطة بنو شعيب فاستنفر عليهم سيفا الامراء من بني عسّاف فناصروه عليهم حتى كسر شوكتهم واخضع رقابهم وضرب عليهم الذل فخلا له الجو بعدهم من منازعٍ وخصيم .

وأصل الامراء العسّافيين من اسرةٍ تركمانية ولّاهم المماليك حراسة كسروان فجعلوا قاعدتهم غزير وبنوا لهم فيها تكنةً ومساكن . ثم انهم ضافروا

السلطان سليماً الاول على المماليك فاقرهم على كسروان وبسط ولايتهم على بلاد جبيل فقويت شوكتهم واشتد بأسهم وكان اشهرهم الامير منصور عساف تربع في دست الامارة من عام ١٥٢٢ الى عام ١٥٨٠ وهو رجل عالي الكعب واسع الصدر شديد البأس كثير الحيلة حسن التدبير مدّ حكمه من بيروت الى عرقا .

وكان في كسروان اسرة مارونية تعرف ببيت حبيش اصلها من قرية يانوح في لبنان الشمالي جلت الى كسروان فراراً من غزوات المتاولة آل حماده وجد عندها الامير منصور جرأة واخلاصاً فقربها وكتب الى كبيرها « الاخ العزيز » فاصبح شيخاً وسرى لقب شيخ ، الى جميع اعضائها[1] واصطفى الامير منصور من رجالها مؤازرين واعواناً يأنس بناحيتهم ولا يصدر الا عن رأيهم ومشورتهم . فسلكوا معه مسالك الصدق والوفاء وسهّلوا السبيل الى التفاهم بينه وبين المسيحيين .

فلمّا هوى نجم آل شعيب وسقط عزّهم وصار الحكم من ايديهم الى آل سيفا الذين حالفوا عليهم بني عسّاف فحملوا عليهم حملات شديدة فشتتوا شملهم واستولوا على بلادهم ، قام العسّافيون على السيفيين ينازعونهم السيطرة على البلاد استقلالاً بالحكم وحالف الظفر رايات الامير منصور فاستولى على الاقاليم الشمالية الى اللاذقية ثم انقلبت عليه حكومة الاستانة فولّت عدوّه سيفا على طرابلس وألقت اليه بمهمة الاشراف على بلاد النصيرية الى تخوم انطاكية عام ١٥٧٢ فاستفحل النزاع بين الاسرتين الحاكمتين واشتدّ بينهما القتال وكُبّدت البلاد من جرّاء ذلك رزايا تسحق العظام . وما زال السيفيّون يتقدمون والعسافيون يتقهقرون حتى تولى هؤلاء العجز وضربت عليهم المذلّة وتفتحت لابتلاعهم اشداق الفناء . وخلا الجو لآل سيفا وقبضوا أزمّة الحكم بلا منازع من نهر الكلب الى نواحي انطاكية . غير ان الموارنة لبثوا مستقلين عن حكم السيفيين يتولّى شؤونهم حكّام منهم يختارونهم هم انفسهم ويلقبونهم

---

١) كان الحكام في ذلك العصر اذا ارادوا تشريف احد بلقب شيخ يكتبون له « الاخ العزيز » فيصير شيخاً بقوة هذه الكتابة .

بالمقدّمين لتقدمهم في الرتبة والمقام . وكان المقدّمون يجمعون الاموال الاميرية من الشعب المنوط بهم ويفرغونها في كيس جابر تركي فتُحمل الى خزانة الدولة عن يد حاكم طرابلس .

فالى هذه الحوادث التي انتهت باستيلاء السيفيين على جبيل وطرابلس وما يليها الى الشمال اشار المدبر ناصر بالكلام الذي قاله ليوسف باشا سيده .

فلمّا جاهر يوسف سيفا بطموح نفسه الى لبنان الجنوبي استكبر ذلك عليه وخشي ان يواجهه بما في نفسه فيجرح تصلفه فقال :

— ما اتمنى لسيدي الا ان تلين له اعطاف الامور ويكون مطلبه دانيَ المنال ويصير امامي الى الحال التي يصحُّ له معها القول : أعرض لك الصيد فارمه . فقال الباشا :

— ما دعوتك لتسعدني بالتمني والدعاء بل بالمشورة الصالحة والرأي الاصيل . قال :

— ان المشير الصادق الضمير من أبعد عن مظانّ الندم وانأى عن مواقف اللوم فسبيلي وانت مخلدٌ اليَّ بثقتك ألّا أدلّس عليك الرأي وازيّن لك المحال . فان شئت ان اتكلم بما في نفسي فعلت . قال :

— تكلم . فانك لمشير صدق وهادٍ الى مناهج الرشد . قال :

— ان الامر الذي ترومه لا يفوت ذرعك مهما يكن عزيز المنال فانّ لك من ماضي العزيمة وعلوّ الهمة ما تذلل به العقاب وتروّض الصعاب . غير ان الحرب عجلة الخراب فلا يحسن اضرامها إلا عن اضطرار . وقد سئمها رجالك ومالت نفوسهم الى الراحة . ويا طالما سمعتهم يرددون قول الشاعر العربي :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجّم

على ان الخصم الذي ترومه قتاله وانتزاع السلطة من يديه ليس بالقَيْل الهيّاب وانت قد عجمت عوده فأسفر امره عن رجل جمع ثيابه على اسد وابن كريهة خوّاض غمرات . ألا ابن قواتنا من قوات فخر الدين المعني وهو اذا صفر صفرةً تألّب حوله خمسون الف مقاتل من السكبان[1] ومثلهم من رجال

١) السُكبان ويقال السُكبان بمعنى (حامي الكلب) قيل لهم ذلك لانهم يتقدمون الامراء في الصيد .

الاقاليم الخاضعة لامارته وكلهم ابطش من ليوث الغاب . وله المقام الارفع والكلمة النافذة في البلاد ومن ورائه المسيحيون ولا سيما الموارنة رجال قتال لا يدخل قلوبهم الرعب . ألا ترى كيف اكتسح الولايات واستولى على حوران وعجلون ونصب اعلامه على حصن نابلوس وبسط حكمه على شواطئ الاردن وابلغ فتحه الى اورشليم وضرب خيامه على ابواب دمشق ، وما اخاله الا مشرئبا الى الاستانة نفسها . قال ابن سيفا :

لا يغرنّك يا ناصر لمعان ابن معنٍ فان هو الا برقٌ خلّب وسراب يتوارى من امام وجهك كلما اقبلت اليه . لئن رفعته التقادير الى اعلى منازل السماء فلاستطنّه الى اخفض ما وُطئ من الارض . اجل لقد حالفه الدهر وتعلّق برياياته النصر ، بيد ان الدهر ابو الغير والغدر ، والايام يومٌ لك ويومٌ عليك . وان فلّ سيفي من قراع الكتائب فلي به رأيٌ لا يفلّ وعزمٌ لا يكلّ . وحيلة لا تنفد ومكيدة لا تضلّ . كيف اتخلّى له عن حكم البلاد وأنا أنا صاحب السيف الطويل والرأي الاصيل . قال :

الرأي يا مولاي قبل السيف . والتدبير اقرب الى الظفر من حشد الجيوش . ان خصمك لقويٌ وليس في البلاد قوةٌ تجرؤ على مواجهته . فدع سيفك في غمده ورجالك في مراتع طمأنينتهم وحالف الامير ليأمن خروجك عليه . ويتقوّى ركونه اليك . فتثبت في الحكم قدمك وهذا حسبك الى ان تتغيّر الحال . قال :

اني وان كنت اميل الى القتال لا احب ان اخوض معمعةً وانا على شكٍّ من الظفر . والعاقل من اذا اقدم على امر نظر الى مخرجه قبل النظر الى مدخله . وان الباب العالي لن يصبر على تطاول المنيّ واطماعه فما هي الا نفخةٌ انفخها في جذوة حقده عليه حتى تشبّ من الاستانة نارٌ تلفّ على المنيّ واتباعه لهيب الفناء . لقد لمعت بوارق النجح . قال ناصر :

الرأي وجيه غير ان للباب العالي شاغلًا عن لبنان في هذه الايام من ثورة البلقان فليس يوجّه حملةً على الامير ما لم يقع في نفسه انه خارجٌ عليه ، وان خروجه عليه في هذه البلاد خطرٌ لا بد من دفعه . فينبغي ان تدخل الى هذا

الغرض من ابوابه وتستعين بوالي الشام على ادراكه ولا يأخذكما وَنى في بثّ السعاية به حتى تفوزا . واذا تقرّبت الى الامير ودالسته دعماً للشبهة عنك وحملًا له على الاخلاد بالثقة اليك فذلك افضل فانه اذا استراب بك فقد يفسد سعيك عليك .

فاطرق يوسف برهةً ثم ضرب جبينه بكفه وقال : ساتلمس بغيتي من مظانها واركب فيها كل صعب وذلول . ولا بد قبل الشروع من التجهز للامر بجهازه لانه قد قيل : دَمِّث لجنبك قبل النوم مضطجعاً ، وسأجمع اقطاب البلاد واشاورهم في ما عزمت عليه . قال :

لا طاش سهمك ، ولا أقل جدّك .

٢

الاميرة هيفاء[1]

فتاة في سنّ العشرين فتانة المحاسن ، هيفاء القوام ، بيضاء الوجه ، سوداء الشعر ، كأنّ محيّاها البدر طالعاً من غلاف الظلام . تمشّت برهة في قاعة كبيرة في دار ابيها يوسف باشا سيفا التي في طرابلس قاعدة حكومة الاقاليم الشمالية من لبنان وعلى جسمها الناعم ثوبٌ طويل من نسيج القلاووس تسحب ذيوله على الطنافس العجمية وتسمع له خشخشةً كأنما هو من رق صقيل . وكان في قلبها خاطرٌ مزعج تعالج إقصاءه ولا تستطيع ، وتجاه عقلها عقدة عاصية تحاول حلها فلا تنحلّ . وطال ذلك عليها حتى احرج صدرها وكسر من نشاطها . فجلست على مقعد من حرير احمر والقت وردة خدها على اصابع من عاج واطرقت تلعب بقلبها الافكار . وانها لكذلك اذ دخلت عليها فتاةٌ حسناء كأنما هي دمية من دمى القصور . وقمت عليها وقبلتها وقالت : هيفاء ! حبيبتي ما بالك مشغولة القلب منقبضة الصدر . بروحي انت بمَ تشكين ؟

---

١) مبنى هذا الفصل الحقيقة التاريخية وهي ان الامير فخر الدين كان متزوجاً بابنة من آل سيفا قيل هي بنت يوسف باشا سيفا . وقيل بنت عليّ اخيه والقول الاول اقرب الى التقليد الوطني . وكان حسين بن يوسف باشا سيفا متزوجاً بنت فخر الدين المعني .

— اواقدر ان ابوح بما في صدري لانسان ؟

— ما عهدتك تستوحشين من ناحيتي وانا اكتم لسرك من نفسك .

— اذا اطلعتك على امري فهل تعدين بدفنه في حفرة الكتمان ؟

— ان استطعتُ ان اكتمه حتى على نفسي فعلت .

— كأني بابي قد وطّن النفس على تزويجي .

— سنة الله في عباده . أمكان ان تُسرّي تلتجين ؟

— اتدرين بمن ؟

— نعم وقد اتيت لاشاطرك المسرّة والهناء .

— هيهات المسرة وهيهات الهناء !

— عجباً ! من أليق بابنة يوسف باشا سيفا من محمد بن حسين باشا جبلاط[1] . ماذا يملك عنه وهو اذا صحّت شهوته فتى محمود الشمائل شريف المساعي كريم النسب رفيع المنصب كبير الثروة مرهف الذهن واقر الجنان . فضلاً عمّا يزينه من ملاحة الصورة ونضارة الشباب .

لست انكره من سوء وانما القلب لمن يهوى .

— اويعلم ابوك انك لا تميلين الى محمد ويحب ان يعقد لكِ عليه ؟

— لقد عرض عليّ عشرات الطلاب من امراء البلاد واعيانها فرفضتهم وهو لا يلحّ عليّ فلماذا أنس مني عدم الرضى بمحمد اربدّ وجهه واحلف عليّ في القبول . وقال : ان الجبلاطيين قوم بنو عزّ وجاه له بمصاهرتهم فوائد جليلة . وقد ازوج كبيرهم علي باشا اختي زمرّدة[2] واتخذ ياقوتة اخت علي زوجة لاخي حسين .

---

١) حسين باشا جبلاط كان والي كلّس وهو عمّ علي باشا جبلاط الذي كان والي حلب وما يجاورها .

٢) ان علي باشا الجبلاطي والي حلب كان ليثَ عرينةٍ وخواض غمراتٍ تطمح نفسه الى الاستقلال . وكان ان الدولة عام ١٦٠٣ وما يليها شغلت بثورة الانكشارية (الانكشارية اي العسكر الجديد . انشئوا في القرن الرابع عشر فاقلقوا الدولة بشكلتهم وثوراتهم وما زالوا حتى نُكبوا عام ١٨٢٦) فجعل يزرع الفتن ويثير القلاقل في ايالتي حلب والشام . وكان الامير فخر الدين قد استولى عام ١٦٠٣ على بلاد صفد وما اليها وامتدّ نفوذه وتسيطره على عجلون وحوران بالصولة والمحالفات فتحوّل الى الشمال

— ان ابك لاوسع حكمة وابعد نظرًا فالتزول على ما يريده الصواب .

— انا اطوع لابي من بنانه واتبع له من ظله غير ان الزواج اساسه المحبة فما شأن السياسة فيه ؟ على انَّ المحبة لا تُغصَب فان ازوجني بمن لا احبُّ فقد غمس حياتي في الشقاء .

— المحبة بنت المعرفة والمعاشرة فمتى عرفت محمدًا وعاشرته وقعت محبته في قلبك .

— لسلخ الجلد عن البدن اهون من سلخ قلب المحبوب عن المحبوب .

وتقرَّب من علي باشا الجنبلاطي الذي كان متاوئًا ليوسف باشا السيفي حاكم طرابلس. وكان بين هذا وبين الامير المعنيّ منازعة على الحكم ووقائع وثارات فاشتبك بينهما القتال في جونية وانتهى بتغلب المعني واضطرام السيفي فولّى المعني الشيخ ابا نادر الخازن حكم كسروان والشيخ يوسف الحماطي حكم غزير وكلاهما من اعوانه عام ١٦٠٥ وكان في دمشق حافظ من قبل الدولة يُدعى احمد باشا وهو المعروف بالحافظ رجلٌ متغطرسٌ حبسٌ فتّاك مطبوع على الشدة والظلم اغرتهُ النفسُ الامّارةُ بمحاربة الامير يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والامير احمد الشهابيّ حاكم وادي التيم فاستنجدا بالامير فخر الدين فأنجدهما متصدّيًا للحافظ فوقعت بينهما عداوةٌ شديدة وجعل الحافظ لا يجد بابًا الى نكاية المعني إلّا دخلهُ ولا سبيلًا الى السعاية به إلّا سلكهُ . فامسى الامير بين عدوّين يوسف باشا سيفا وحافظ دمشق فانحاز الى علي باشا جنبلاط عدوّ الاثنين فوشى به السيفيُّ الى السلطان والتمس الى ان يُسند اليه قيادة عسكر الشام ليتكّل بالجنبلاطي فأُقيل الملتمس وأمّل انهُ سيفتُّ في عضد المعني مفرّقًا عنهُ اعوانهُ ومرهقًا مناصريه . فحشد جيشًا عرمرمًا في ارض حماة وانضمَّ اليهِ انكشارية دمشق بقيادة احمد باشا الطواشي فاستظهر الجنبلاطي عليهم ومزّق صفوفهم وفرّ ابن سيفا الى طرابلس فتقفّره منها الامير المعنيُّ فارسل اسرتهُ الى دمشق واغر الى اللجون في فلسطين فاجارهُ اميرها احمد بن طرباي واوصلهُ بطريق حوران الى دمشق .

وكان الحج كيوان ضمه ضو الديراني الماروني مُدبّر الامير المعني فاستحثّهُ لتصيد علي باشا جنبلاط في محاصرة يوسف باشا سيفا في دمشق فجهّز جحفلًا جرارًا من السكبان ومن رجالهِ المسيحيين والدروز والمسلمين واجتمع بالجنبلاطي عند مشيع ثمر العامي قرب المرمل فارسلا درويش بن حبيب جنبلاط شقيق حسين باشا الى طرابلس فضبطها واطلق فيها ايدي النهب إلّا قلعتها التي تحصّن فيها يوسف مملوك السيفي فاشتمت عليهِ . وزحف المعنيّ والجنبلاطيُّ بجيوشهما على دمشق وخيّما في البقاع واطلقا عسكرًا على بعلبك فنهبوها .

وجمع السيفيُّ عشرة آلاف مقاتل في وادي بردى وسار بهم الى ارض عرّاد بنواحي حماه حيث التقى بجيش عدوّيهِ المتحالفين واستمال الحج كيوان زعماء الجند الشامي الى سيّده واغراهم بالفرار عند اشتباك القتال . فلما اصطدم الفريقان تمزّق شمل الجند الشامي

— انما سمي القلب قلباً لتقلبه . فكم محبة جديدة تمحو القديمة .

— اذا وقع مثل هذا فلغيري . أمّا انا فليس يصحّ عليّ غير قول الشاعر : ان المحبة للحبيب الاول .

— ان كان لك نصيبٌ تؤثرينه وهو صالح فما اظنّ اباك يقيم حائلاً دون ذلك النصيب .

— أو أجرؤ ان اذكره لابي وهو يعدّه عدوًا لدودًا ؟

— يا للغرابة ! اتقع المحبة بينك وبين عدوّ لابيك !

— متى صرت زوجةً له تنقلب العداوة الى صداقة ويصبح العدوّ حليفاً لابي وابناً أبرّ .

— من هذا الذي تؤثرينه على الامير الجنبلاطي ؟

— هو خلاصة الكرم ، وملحة الظرف ، ومعدن المروءة ، وقلب الاسد . هو الذي : الخيل والليل والبيداء تعرفه والسيف والرمح والقرطاس والقلم . هو عين هذا الزمان الذي سارت بذكره الركبان واشاد بصيته الرواة .

— ما أراك تعنين بهذه الاوصاف الشائقة غير الامير فخر الدين المعني . أإياه تعنين ؟

وصُرع منهم كثيرون وأُسر كثيرون . وتأثر الجنبلاطي والمعني فلول الكتائب الثانية فخيّما في قرية المزّة ودخل محمد باشا الطواشي المدينة بالفارّين وحصّن ابوابها واراد السبعيُّ الخروج بجماعته فتصدّى لهُ قاضي قضاة الشام المولى ابراهيم بن علي الازبكي وحسن باشا الدفتري واعيان المدينة ومنعوه من الخروج ما لم يدفع اليهم فدية المدينة فتقد القاضي مئة الف قرش فاطلق وفرّ الى حصن الاكراد .

واغضب الجنبلاطي اطلاق الشاميين للسبعي فصاح بالسكبانية وسائر رجال المعني فاندفعوا ينهبون خارج المدينة ويفتكون وهاجموا محلّة القبيّات والميدان وسوينة المحروقة وسوق سارجا ومحلة السودان والصالحية مدة ثلاثة ايام . ثمّ طلب الجنبلاطيُّ غرامةً فأدوهُ مئة وخمسة وعشرين الف قرش وطلب المعنيُّ ولاية البقاع وبعلبك للامير يوسف الحرفوشي فكان لهُ ذلك . وزحف الجنبلاطيُّ على حصن الاكراد فضيق عليه الحصار فاستعرضاهُ يوسف باشا سيفا بثلاث كرات من القروش وأزوجهُ بنتهُ زُمُرّدة واتخذ اخت الجنبلاطي زوجةً لابنهِ الامير حُسين وخمدت بينهما جذوة العداء وكرّ الجنبلاطيُّ راجعاً الى حلب . وعاد المعنيُّ الى الشوف يُحرقُ الارض لنجاة عدوّهِ وتعزّز جانبه بمصاهرة الجنبلاطي .

قالت : اياهُ . قال : يا لهُ نصيباً تُحسدين عليه . الله في قلبهِ مثلُ ما في قلبكِ ! قالت : ذلك وزيادة . قال :

— لا اسألكِ عن مبدأ المحبة بينكما مع ما بينهُ وبين ابيكِ من الزحام على الحكم لاني واقفة على ما ازدرع عندكِ من المعروف . قالت :

— كان ينبغي على آل سيفا ان لا يجحدوا نعمتهُ ويخفروا ذمتهُ غير ان مطامع السياسة أبت الأ الجنوح براكبها عن جادَّة الوفاء . قالت :

— لقد كنتِ في حوزة الامير فكيف اطلقكِ ولكِ الحظوة عندهُ ؟ قالت :

— ان الامير أرفع خلقاً واعزّ نفساً من ان يأخذ له زوجةً على غير المألوف من رضا مَن لهُ الحق ان يزفَّها اليهِ . ولو سامني مثل هذه الحطة لامتنعتُ .

— الم يُضطرّ ابوك لاسترضائهِ بكِ يوم القلعة كما استرضى الجنبلاطي بشقيقتكِ ؟

— تعزّز موقف ابي برضا الجنبلاطي ومصاهرته فلو شدَّد المعنيُّ يومئذٍ على ابي في امري لما استطاع اكراههُ وقد صار الجنبلاطيُّ في جانبهِ . وضعيفان يغلبان قويًّا .

— لقد كنتِ في حوزتهِ ولم يضبطكِ وعدتِ الى بيت ابيكِ ولم يخطبكِ ، ونفسهُ ارفع من ان يأخذكِ إلَّا برضا ابيكِ وابوكِ لن يعرضكِ عليه . فكيف تؤمّلين اقتراناً بهذا الذي تحبّين !

— ألم يبلغك ان الامير المعنيّ قد أوفد الى ابي وفدًا من اعيان الشوف برئاسة مدبرهِ ابي نادر الخازني . فاكرم ابي وفادتهم وتقبّل هداياهم ولمَّا وقف على قصدهم قال للشيخ ابي نادر : انَّ لي بمصاهرة الامير لفخرًا غير اني اكره ان يصير لي ابناً وتكون بيننا المنازعة على الحكم . وانت تعلم ان السيفيين والمعنيين متشاقون في طريقة الحكم فهم يتزعون الى الاستقلال عن حكومة السلطان ونحن لهذه الحكومة موالون وعلى بسطة سلطتها في البلاد عاملون . وانَّ نفس الامير طامحةٌ الى توحيد الامارة وحصرها في قبضتهِ وقد شنَّ الغارة على بلادي وحاول انتزاع السلطة من يدي ولولا حؤول الحدثان دون بغيتهِ لكنتُ اليوم من عمَّالهِ او لكنتُ مقتلعاً من ارض الاحياء ، فاذا عاهدني على

السلم وأقسم لي انهُ لا يتصدَّى لاقليم الشمال فانا مصاهرهُ ومحالفهُ ومناصرهُ إلَّا في ما اذا سوَّلت لهُ النفس الخروج على الباب العالي فلي موقف الحياد ما استطعت الى ذلك سبيلًا . فاستعظم الشيخُ هذا المُهرَ وقال : نحمل الجواب الى الامير . وحملهم ابي اليهِ من انفس ما لديهِ وشيَّعهم مكرَّمين .

ولمَّا اطلع الامير على شرط ابي استغلظهُ ووقع في حيرةٍ من امرهِ ووجد نفسهُ بين عاملين متضادين إن رفض الشرط فقد طعن قلبهُ ومحبوبتهُ طعنةً لا تندمل على العمر . وان رضيهُ فقد نكث العهد الذي قطعهُ للبنان انهُ لا يغمد حسامهُ حتى ينيلهُ استقلالهُ ويضرب كلَّ رقبةٍ مشرئبةٍ اليهِ . ولبث برهةً يتردد بين الخطتين ولا يجرؤ على التضحية باحدى المحبتين . هيفاء والوطن . كلاهما جميلٌ وكلاهما عزيزٌ وكلاهما معشوق . لكنهما لا يجتمعان . هما بثابة العينين فايهما يقتلع ؟ تهادتهُ الغموم وتنازعتهُ الهموم . وحرج صدرهُ وتبيَّن الكمد في وجههِ . فأطلَّ رأسهُ من نافذة القاعة وتنفَّس الصعداء وتنشَّق شمَّةً من الهواء وسرَّح نظرهُ في الفضاء ومدَّ يمناهُ وجعل يُسراهُ على صدرهِ وقال : أي لبنان المحبوب ! فهُ عليَّ ان لا احبَّ عليك بشرًا ولا شيئاً . ولا ادَّخر في سبيل استقلالك تعباً ولا راحةً . انتَ بعد اللهِ معبودي الكريم . انتَ انتَ قبل الوالدين والاخوة والزوج والمال والنعيم . ان نسيتكَ فلتنسني عيني . وان عشتُ لغيرك فلا عشتُ وان لم أُعلِ مجدك فليلتصق وجهي بالتراب . وان أضعتُ ذمَّتك فليخنني بنوك ويطأني اعداؤك ، ولا يذكر اسمي في سجلّ ابطالك وحماة ذمارك وليرث ارزك العظيم .

وانت يا هيفاء لا يَرعكِ صدُّ ابيكِ فستصيرين ربَّة بيت المعنيّ وجنَّتهُ الحيَّة ورفيقة حياتهِ ولبرءة اشبالهِ شاء ابن سيفا أو أبى . ولم يمد يطلبني الى أبي . وما برحت رسائلهُ ترديني متتاليةً منذ ذاك اليوم وكأنهُ يفرغ فيها خفقة روحهِ ورقة حواشي طبعهِ وشريف عواطفهِ ولطيف فكاهتهِ فاقرأ فيها قلبهُ الطافح حبًّا ويخيَّل لي انهُ قد خطَّ سطورها بمداد مهجتهِ . ولولا تلك الرسائل لأسلمني الجَلَد وسئمتُ الحياة وصرتُ الى اليأس المخيف ولكنَّ هي الامال تخفف الآلام .

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الامل

ورفعت بنتُ ناصر نظرها اليها فاذا على وردتي خديها لؤلؤتان من الدمع فرثت لها واغرورقت عيناها بالدموع وقالت : طيبي نفساً يا سيدتي واعتمدي عليَّ فسأطلع أمّي على امرك وهي محضُ أبي ليصرف أباكِ عن عزمه . وابوك لا يصدر حكماً إلّا عن رأي مدبّره ولا يقطع امراً دونه. فيزيّن له مصاهرة الامير المعنيّ ويصرفهُ عن مصاهرة الجنبلاطي . فتذرعي بالصبر وتوقعي قربَ الفرَج .

فمسحت هيفاء على عينيها بمنديلٍ من حرير ابيض مزركش الاطراف بخيوطٍ ذهبية اللون . وبلعت ريقها وتنفّست وقالت : شكرًا لكِ يا عزيزتي طيّبة . غير اني اكرهُ ان تبوحي لاحدٍ بما علمتِ من صبابتي وجواي .

— كلي الامرَ الى فطنتي ، واعلمي انَّ مدبّر ابن سيفا أوسعُ حكمة واكرمُ شيمةً من ان يقول او يفعل ما يحطُّ من شأنك ويسوق اليكِ الملام .

٣

على نهر الجي علي

كان بنو شعيب مسيطرين على الاقاليم الشمالية اللبنانية في ما وراء طرابلس وقاعدتهم عرقا . وكانت بينهم وبين آل سيفا عداوة شديدة منشأها التنازع على الحكم والمزاحمة على ولاية طرابلس . وسياسة الباب العالي الدائرة على التقسيم في العمال والرعية ايهاناً لهم بالتفرق حتى لا يتيسر لهم الخروج على الدولة . فوقع بين الاسرتين معارك دموية في اوقات مختلفة واشتدت حملات الشعيبيين على السيفيين سنة ١٥٢٨ وكادوا يسحقونهم فاستنجد السيفيُّون بالامير فخر الدين الاول وقد فزعوا من عكّار الى البارود ، فأنجدهم الامير المعني بتوسط الامير منصور العسّافي والي كسروان وجبيل وسيَّر معهم الى عكّار ثلاثمئة مقاتل من اشد رجالهِ بأساً انضموا الى رجال الامير منصور واطبقوا مع السيفيين على آل شعيب ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وتولّى السيفيُّون حكمهم. ثم سعى الامير منصور بقتل زعيمهم محمد آغا الشعيبي فقُتلَ هو وابنهُ حمدان ، فاستتبَّ حكمُ طرابلس للسيفيين وتشتّتَ بنو شُعيب في انحاء البلاد وفرَّ جماعة

منهم الى حوران وفي صدورهم حزازات . فلمَّا استقرَّ بهم المكانُ عقدوا القلب على الثأر من اعدائهم بما تصل اليهِ أذرعهم وباتوا يتحيَّنون الفُرص . وكان بعد زمان ان اربعة من رجالهم هبطوا الى طرابلس متنكرين ومعهم امرأتان دجَّالتان تدَّعيانِ علمَ البختِ واقامَ جميعهم في المدينة يرقبون سنوحَ الفرصة للانتقام بقتلٍ او سلبٍ او إحراقٍ فلم يتيسَّر لهم شيءٌ من ذلك . وكان انَّ نساءَ يوسف باشا سيفا خرجنَ ذات يومٍ الى بستانٍ على نهر ابي علي لترويح القلب وتنشُّق الهواء النقيّ ، وعند منتصف النهار مُدَّت لهنَّ مائدة في ظل شجراتٍ فجلسنَ حولها على بساط العشب الاخضر في الفيْ ، يأكلنَ ويشربن مسرورات طربات . وبينا هنَّ كذلك اذا بدويَّتان وقفتا عليهنَّ وغنتا لهنَّ اصواتاً مُطربة على نقر الدفّ ، ورقصتا امامهنَّ رقصاً حسنَ في عيونهنَّ . فقدَّمنَ لهما طعاماً فلما استوفتا قالت احداهما للاميرات : مَن مِن سيداتي تحبُّ ان اكشف لها عن بختها فاني بارعةٌ في علم الابراج ولي معرفةٌ واسعة بالمجهولات والخفيَّات ، وما عليَّ إلَّا ان احدّق في خطوط الجباهِ والاكفِّ ، فأرى الخطوط بارزةً من ظلمة الخفاء باسطعِ اشعةِ الجلاء ، فاقبل كلهنَّ عليها وقلنَ بصوتٍ واحد : أنا ، وعَرضنَ لها اكفهنَّ ، فتحيرت في ايهنَّ تبدأ . وقالت : ما لكنَّ والزحام انَّ لي في اكتشافِ البختِ مزيَّةً لا يملك مثلها غيري من مبرّجين ومبرّجات . ها انا أبرّجُ لكلكنَّ دفعة واحدة واجعلُ كلَّ سيدةٍ منكنَّ تعرف بختها وبخت رفيقاتها في اسرعِ من ردّ الطرف . في آنٍ واحدٍ يرتسم في اذهانكنَّ الماضي والحاضرُ والمستقبلُ من كل ما وقع وسوف يقع لكنَّ . وشرطي عليكنَّ ان تطاوعني في ما أُوعزُ بهِ اليكنَّ . وما زالت بهنَّ حتى حملتهنَّ على شيءٍ من الثقة والتصديق وحصلت لهنَّ رغبةٌ في اختبار علمها الفريد ، فقلنَ لها : نفعلُ ما تُحبين . قالت : اذن ، أعصب على عيونكنَّ وأُحرق بخوراً مقدساً في نار أوقدها بيدي ، وانتنَّ تتنشَّقنَ من دخان ذلك البخور وانا اتلو آياتٍ روحانية لا تفهمنها ولا مثلها سمعتنَّ . فاذا انتهيتُ من تلاوتي تعرفن من تلقاء انفسكنَّ غوامض عجيبةٍ واسراراً خافيةَ الغور كانت مكتومة عن علمكنَّ . وتعلمنَ ايضاً كلَّ سعيٍ لكنَّ او

عليكنّ، وكلّ ما تخبئهُ الايامُ لكنّ وكلّ عاطفة تختلج في صدور بعولكنّ. وكانت تتكلّم بصوتٍ رخيم ولفظٍ انيق ولسانٍ طليق. حتى خلبتهنّ وسحرتهنّ فقلنَ لها : افعلي ما شئتِ .

فشدّت عصائبَ على اعينهنّ واحرقت سعيقاً على نارٍ أوقدتها وشقّتهنّ وهي تدمدمُ وتُتمتمُ وتهمهمُ وتذكرُ أسماء غريبة وتستدعي ملائكة وشياطين. فما هي الا بضع دقائق حتى انقلبَ كأنهنّ وفارقهنّ الوعيُ ولم يبقَ عندهنّ من مظاهر الحياة إلّا النفسُ في أنوفهنّ. حينئذٍ طلع من وراء السياج اربعة فرسانٍ مدجّجين بالسلاح وقعوا عليهنّ وسلبوا كلّ ما كان عليهنّ من زينةٍ غالية وحليّ نفيس . وافرغوا على هيفاء لباس بدويّة ، وحملها احدهم على ظهر جواده من ورائه ، وتوارى الاربعةُ الفرسان والبدويّتانِ .

٤

في هوراه

لبثت هيفاء تحت سيطرة المخدّر ترى الاحلام المزعجة وتتتالى على مخيلتها الاشباح المرعبة حتى انتهى بها السابون الى سهول بعلبكّ ففتحت عينيها فاذا هي على فرسٍ وراء بدويٍّ فارتجزت رعباً وقالت : اين انا ؟ وظنّت انها حالمةٌ ففركت عينيها وجستّ جسمها فسقط ظنُّها وايقنت انها مستيقظة والتفتت الى ما حولها فوقع نظرها على ثلاثة خيالةٍ مدجّجين بالسلاح احدهم امامها والاخران وراءها فارتاعت. وشاهدت ارضاً غريبةً ومشاهد لم تقع عينها عليها قط . فاستوقفت البدويّ الذي يحملها على فرسهِ فلم يقف . فحاولت ان تلقي بنفسها الى الارض فاذا هي مشدودة الى ظهر الرجل برداء معقودٍ الى صدرهِ فاستصرخت وما من مجيبٍ والجواد يطوي بها السبل كما يطوي العقاب فسحات الفضاء . واحسّت بحرارة قاسية وعطش مذيب . فمن اين الماء ترطبُ بهِ لسانها إلّا ما يسيل من وجهها ومقلتيها من عَرَق الخوف البارد ودمع الاغتمام السخين. وما زالت على هذه الحال حتى اسبل الليل ستار الظلام وحلّ التعب بالخيل وضايقها الجوعُ والظمأ ولم يعد يقوى على اثارة نشاطها وخز المهامز ولا ضرب

السياط . فترجّل الفرسان في مضيق بين جبلين ومشوا الهوينا تخيلهم وهيفاء في الوسط كمجرمة يخفرها الجندُ حتى انتهوا الى خان ميسلون في وادي القرن فحطوا رحالهم على مسيرة بضعة اميالٍ منهُ واتوا بالماء. والطعام والعلف فاكلوا إلّا هيفا. كرعت جرعةً من الماء. فقط فحاولوا تسكين روعها وتعلقوها بالكلام الحسن والملاطفة لتأكل وتسند قلبها فامتنعت وكانت بينهم ترتجز كالارنب احدقت به كلابُ الصيد فاشعلوا غلايينهم وجلسوا يتحدثون الى منتصف الليل. ثم وثبوا على ظهور الخيل كشواهين على نسور وأردفوا هيفاء وراء احدهم وما زالوا يجدُّون في السير وينهبون الارض حتى اقبلوا على دمشق فمالوا عنها جنوباً في طريقٍ غير مطروقة انتهت بهم الى حوران. فنزلوا عند خيام مضروبة وخرج للقائهم رهطٌ من سكانها وفيهم رجلٌ طويل القامة مرسل اللحية قليل اللحم اسود العينين تحيط بسوادهما حمرةٌ فاتَ عِقدَهُ الخمسين يدعى الامير اسماعيل شعيب والى جانبه ابنه الامير عزام وهو شابٌّ ظريف الهيئة معتدل الاعضاء. شديد الاوصال يناهز سنَّ الخامسة والعشرين. فرحّبا بالقادمين واثنيا عليهم واطنبا في مدح جرأتهم ودهائهم. واخذ اسماعيل الفتاة من يدها وادخلها الى بيته وعلى وجهها صفرة الموت كمن تُدخل حيَّةً الى الرمس . ثم نادى بزوجته اسمآء وقال : اليكِ هذه الاسيرة تكون معكِ في خبائكِ مصونةً ومكرَّمةً الى ان ننظر في امرها. وحدَّق عزَّام في وجه الصبيَّة على نور مصباح فأعجبه شكلها ووقعت من قلبه وآلمه ما بها من غمَّةٍ وانكسار . وقال في نفسه : ما ذنب هذه المخلوقة الجميلة كروضةٍ ، النقيَّة كزنبقة ، ما ذنبها فتُقصى عن وطنها وتُنتزع عن ثدي لذّات بيتها . متى حملت علينا سلاحاً ، او لنا حقداً فتثأرُ منها لانفسنا بالسبي والجلاء. لعلَّ الله أرسلها اليَّ لامر به صلاح! لاجل ان اتخذها زوجة لي فتكون سبباً للتقرُّب بين الشَعيبين والسيفين ، فتزول العداوة من بيننا ونعود الى أرضنا واملاكنا آمنين . وتربةِ اجدادي لأطيّبنَّ نفسها واجعلها سيّدة هذا البيت . وامرة آل شُعيب . فان فارقها استيحاشُها واحبَّت الدخول في أسرتنا وإلّا رددتُها الى بيت ابيها فتكون لمن تهوى . فتعلم ويعلم الناس كلُّهم ان بني شعيب اكرم شيمةً من ان يأخذوا

فتاة بجريرة اجدادها او يحذفوا بحجارة الأذى من لم يُثِرْ على ثيابهم غبار اذاه.

اثاب اسماعيل رجاله الاربعة بعطايا مرضية وصرفهم الى خيامهم واوصاهم بكتم السر . ولمَّا افترَّ ثغر الصباح دخل اسماعيل خباء الحريم وقال لهيفاء : ما اتينا بك الى هذا البلد البعيد لشرٍ نوقعه بكِ او نزيدك عليه . بل نكاية لكبراء أسرتك الذين فتكوا برجالنا وشتتوا نساءنا ويتَّموا اطفالنا وضبطوا املاكنا وانتزعوا الحكم من ايدينا وانزلونا عن ذروة عزنا ، فتسكنين عندنا اسيرةً لكن لا عبدةً وستكونين اجنبية لكن لا مسومةً هواناً ، ولن يطلقك من هذا الاسر إلا أحدُ حادثين او كلاهما : موت ابيك او رجوعنا الى ما كان لنا من عزٍ وثروةٍ وجاه .

فحدَّقت فيه بعينيها الواسعتين وقالت : أمكث عندك مكرهةً واصبر على مضض الغربة والاسر حتى يفتح الله باب الفرج . وما دام نَفَسي في أنفي فلن يأخذني سلوٌ عن اهلي والوطن . ولأن اكون اجنبيةً في بيتك احبُّ اليَّ ، وما اقدر إلا ان اكونه وانتَ عدوُّ ابي وجدّي وآسري لا ببطشك وقوة ذراعك ولا بذريعة عادلة وشريفة بل بأخسّ الوسائل والحيل . ولا اسألك مراعاة واحساناً الّا ان تحبس عليَّ في موضع خلوة حيث اجعل النعم جليسي والدمع انيسي ولا يكون لي تسلية إلّا الأنين والهديل . قال إن احببتِ العزلة على الإقامة معنا فذلك اليكِ . اليومَ تُنصب لكِ خيمة ويُقام لحراستكِ امرأتان . قالت أسماء : أسألك ياسيدي ألّا تفعل فان الصبيَّة مستوحشة ، كِلْ امرها اليَّ فانا أؤانسها حتى تركن بنا فان استعصى نفورها فهي الجانية على نفسها ، ومَن لا يرحم نفسه فمَن يرحمه . قال : افعلي . وخرج .

فطفقت أسماء تلاطفها وتهوّن عليها وتؤمّلها بقرب الفرج فما يزيدها ذلك إلا اغتماماً . لم تستطع ان تلوي عزمها عن الاعتزال . واقبلت عليها وطفاء بنتُ اسماعيل وقالت بصوتٍ متهدّجٍ رخيم : لا تبكي يا أُخيَّة ، فانا وأمي وسائر هؤلاء النسوة نحبُّكِ ولا نعدّكِ غريبةً بل كواحدةٍ منا تقيمين معنا ولا تفرقكِ عن أنفسنا ، وأدنت فمها من أذنها وهمست هذا الكلام : ستصيرين اختي وابنةً لأبي وسيّدة هذا البيت ، وبكِ تُنقض العداوة القائمة بين أسرتنا

واسرتك فطيبي نفساً وقرّي عيناً . ووقعت عليها وقبّلتها ووعدتها بان تجعلها معها في خيمةٍ تنصب لها وحدها . وما زالت بها حتى سُرّيَ عن قلبها وسكنت اليها .

وفي صباح الغد ضُربت خيمة من شعر على بُعد خمسين خطوة من خيمة اسماعيل وسُمّيت خيمة وطفا . ، أوَت اليها الفتاتان وطفا وهيفا . وكان بينهما التماثل اخلاقاً وسناً فامتزجت روحها اي امتزاج واستحكمت بينهما الصداقة وتوثقت رُبط الاخاء . اعتصمت هيفا بالتصوّن فلم تكن ترفع نظرها الى رجلٍ ولا تأذن للسانها بتحديث رجلٍ إلّا اذا اضطرت لمجاوبة اسماعيل . فوقعت هيبتها على كل اسرة شعيب واحبوها على ما بهم من المقت لآل سيفا وانزلوها من انفسهم منزلة الاكرام .

غير ان ذلك كله لم يُنقص من شعورها بذلة الأسر ولا خفّف ما بقلبها من عذاب الفراق . فكانت احياناً تسند رأسها الى صدر صديقتها وطفا فتحرقه بالزفرات وتبلّه بالعبرات حتى تبكي وطفا لبكائها وتعالج تسليتها بكل ما عندها من فكاهة الاخلاق ورقّة الشمائل وتطأمن الجانب وحلاوة اللسان وملاحة النكات ، فتجيبها هيفا . : لا تعنّي النفس يا صديقة ، فانه كيف يصفو للاسيرة عيش او يفارقها غمٌ ويتقطع لها دمعٌ وهي كالطائر انتزع من العش وحبس عليه في قفص ؟ لقد عاهدت اذنيَّ ان لا تستلذا نغمةً ولو من نغمات السماء حتى يقرعها صوت والديَّ واخوتي الذين في ظل محبتهم ربيتُ . وقلت لعينيَّ فقيتا ان استجلتا مشهداً حتى تعاينا تلك الوجوه المحبوبة وتقعا على مشاهد الوطن الرائعات . سقياً لكِ يا طير السماء فانك في يسير من الحين تشقين الهواء وتطوين فلوات الفضاء وتدوّمين فوق عكار وطرابلس البلدين البهيين وتصفقين باجنحتك الخفيفة طرباً فوق قصور آل سيفا الشاهقة فوق حصون الجبابرة المنيعة . يا نسيم الصبا الا تحملنَّ سلامي الى ارباب تلك القصور والحصون . انه لطيف مثلك فليس يثقل عليك أيها النسيم . بالله يا ريح الجنوب اذا بلغت طرابلس وهزهزت اشجارها وتنشقت عرف رياحينها في بساتينها الناضرة وحدائقها الغنّاء. ألا اخبرتِ حاكم طرابلس امير عكار عن

حال بنته هيفاء . وبحت بما بقلبها من لوعة الشوق وحرقة الفراق ، اين انتم يا ابطال سيفا يا اسود الوغى يا أباة الضيم يا حماة الحريم ! ـ

وكان عزام يجيء احياناً فيجلس في باب الخيمة يحدث اخته ويحاول ان يسترق من هيفاء نظرة حبٍ او كلمة تودد ومؤانسة فلا يفوز منها بتأريب . وعرفت اخته ان الفتاة آخذة بمجامع قلبه ، لانه كلما الق الخيمة ينظر الى وجهها المليح وقدها الرشيق بعين تفضح اسرار محبته وتروي عن حديث مودته يلقي عليها الاسئلة المطولة بكلام رقيق الحواشي معجون بعسل اللطف فترد عليه بالفاظ موجزة تفرغها في قالب الرزانة ملحوفة بشيء من اليبوسة فيؤلمه ذلك فينهد ويفرك يديه وتنقلب سحنته ويطرق برأسه صامتاً يفكر وعيناه جامدتان ، اخذ النحول ينال من جسمه وقلَّ اكله ونومه وزهد في الضحك والفرح وكثير من التسليات . وكانت وطفاء تنظر الى ذلك القلق وتحب ان تخرج اخاها من تلك الحال ، لكنها تأبى العمل على رفع كربه قبل ان يكاشفها بما في نفسه من محبة هيفاء ، فلما ينست من بثه ما في صدره من تلقاء نفسه وهالها مصيره اذا لبث على تلك الحال ، جلست مقابله ذات يوم ومسَّت بانامله العاجية اسفل ذقنه وقالت له : اراك أخا كلفٍ بالصبية فهلا تروم الاقتران بها فأطلعها علي بغيتك ؟ فتبسَّم واجاب : لقد نمَّ وجهي عن حديث فؤادي فما ينفع ان اكتم كلفي . اني لمولعٌ ولهان فافعلي . فأوقفت صديقتها على حاله وافاضت في الكلام تزييناً وتشويقاً . فلما اشتد الحاحها احمرَّت وجنتا هيفاء وقالت : عدّي يا عزيزة عن هذا الحديث فان كان لي محبة في قلب اخيك فليردّني اولًا الى بيت أبي ثم اذا جبر كسري واطلقني من اسري فحينئذٍ يجوز له ان يخطبني بوسيلة الاحسان اليَّ والى والديَّ . أمَّا ما دمت في ارض الغربة فحديث النعش والرمس احبُّ اليَّ من حديث الزواج والعرس .

— اذن انت لا تحبين عزّاماً وهو اخي ؟

— احبه لانه اخو حبيبتي وان كان ابن عدوّي وعدوّ ابي . غير اني احبه كأخ لا كنصيب .

— لو شئت لاحببته كما يحبك ولآلمت محبتك اياه الى سعادتك .

— لو ساغ للاسيرة ان ترتاح الى سعادة غير سعادة الرجوع الى وطنها لما رددت طلبته وخيبت املك وكلاكما عزيزٌ عليَّ .

— لأبي ان يكرهك اذا اراد ، فانت قيد سلطانه ولا مفلت لك من طاعته .

— لابيك يا وطفا . سلطان على حياتي لضعفي وقوته . أمَّا على ارادتي فليس لاحدٍ من سلطان . فان غصبني على امري فقد اشقى ابنه وأشقاني وما اخاله يبتغي لابنه الشقاء .

— بعيشك يا هيفاء تحوّلي عن هذا العزم فاني مشفقةٌ عليك من سخط قومي اذا لم يلن جانبك . أيقني ان المحبة اذا قارنها اليأس انقلبت الى لددٍ وبغضاء .

— قلبي مستعدٌ لكل كارثة وبنت سيفا لا يطمعها تجاه الواجب وعدٌ ولا يرهبها وعيد . اغريبة واسيرة وتخطوفة واعاهد على زواج مَن ابوه عدوّ لاسرتي وغادرٌ بي ومقطع اكباد والديَّ وعشيرتي حزناً عليَّ . ردّوني الى بيت ابي فاشاور قلبي الحرّ في الاجابة الى ما تسألون .

— لو كان الامر اليَّ او الى اخي لفعلنا ولكن ارادة اسماعين اصلب من الحديد .

— وارادة بنت سيفا اصلب من الجلمود والماس .

— اذن تهيَّأي للشقاء .

— هيّئوا حفرتي وادفنوني حيةً فذلك اشرف لي واهون عليَّ من خيانة قومي الذين سيعرفون كيف يثأرون لي .

فتغيرت سحنة وطفا . تجاه هذا العناد والقت على صديقتها نظرة اشفاق ورحمة ومسحت عن خدّيها سمطين من لؤلؤ الدمع وقالت : لا مفر من المكتوب !

ومنذ ذلك اليوم امسى الجميع ينظرون الى هيفاء شزرًا ويوسعونها هُجرًا ويكثرون لها عن ناب العدا . وامسى عيشها ضنكاً وصفوها كدرًا وجعل غمّها يتكثر واكلها يقلّ وجاش مقلتيها الوسن واستولت عليها الهواجس وسيطر على جسمها الهزال .

(لها صلة)